Journal home page: https://sej-lagh.com
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/644

مجلة التمكين الاجتماعي
المجلد 04 / العـدد 01 / مارس 2022 / ص ص 36 - 49

المثقّف التّونسي في الفكر العربي المعاصر؛ محمّد الخضر حسين نموذجا

The Tunisian Intellectual in Contemporary Arab thought ; Muhammad al-Khidr Husayn is an Example

سعيد قروي
Said Karoui
المعهد العالي للحضارة الإسلامية (تونس)، البريد الالكتروني: saidmoon@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/19 تاريخ القبول: 2022/02/14 تاريخ النشر: 2022/03/31

ملخص:

يستدعي البحث عن الحقيقة الغوص العميق في التّاريخ، والتطّرّق بتمحيص في ثناياه. ولمعرفة أدوار السّلف من المثقّفين العرب عامّة والتونسيّين خاصّة، بات لزاما الكشف عن المهمّة الّتي اضطلعوا بها، وبيان وقعها في الفكر العربي المعاصر وتأثيرها سواء كان سطحيا أو عميقا.

وفي هذا الصّدد، ساهم محمّد الخضر حسين (1876-1958م) في إثراء الفكر العربي المعاصر من خلال انتاجاته العلميّة والفكريّة، ونشاطاته السّياسيّة والاجتماعيّة، باعتباره مثقّفا عربيّا تونسيّا.

الكلمات المفتاحية: محمّد الخضر حسين، المثقّف العربي والتّونسي، الفكر العربي المعاصر، الانتاجات العلميّة والفكريّة، النّشاطات السّياسيّة والاجتماعيّة.

Abstract:

The search for the truth calls for a deep dive into history, and a careful study of its folds. In order to know the roles of the predecessors among the Arab intellectuals in general and the Tunisians in particular, it became necessary to reveal the mission they undertook, and to show its impact on contemporary Arab thought and its impact, whether it was superficial or deep.

In this regard, Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein (1876-1958) contributed to enriching contemporary Arab thought through his scientific and intellectual productions, and his political and social activities, as a Tunisian Arab intellectual.

Keywords: *Mohammed Al-Khidr Hussein, The Arab and Tunisian Intellectual, Contemporary Arab Thought, Scientific and Intellectual Productions, Political and Social Activities.*

- المؤلف المرسل: سعيد قروي، البريد الالكتروني: saidmoon@hotmail.fr

ISSN: 2676-234X DOI 10.34118/sej.v4i1.1974 EISSN: 2716-9006

1-مقدمة:

من الملاحظ أنّ العالم يتقدّم بالرّجوع إلى الوراء؛ إلى ما ساقه الأوائل والسّلف من علوم وبحوث واكتشافات في شتّى الميادين إذ تركوا بصمتهم الّتي طبعت الرّاهن ببصمة التّرقّي، وبسطت بساط العلم والمعرفة، ومثّلوا خير أداة يُحتذى بها للسّير على منوالهم واتّباع خطواتهم، محاولة لبثّ الإثراء والإضافة. ولقد حاول الكثير من المثقّفين في مجمل المجالات في العالم العربي التّطرّق لقضايا العصر ومعالجتها، وحلحلة المسائل الحضاريّة والخوض في الشّائكة منها وذلك قصد فتح أبواب التّبصّر والتّفكير والتّمحيص. ومن ثمّ، فإنّ العقل العربي حاول، ولا يزال، كشف الحلول والمناهج والآليّات الهامّة الّتي تحقّق سبل الارتقاء والازدهار في المجالات الحيويّة، من خلال إنشاء ركائز وأسس فكرية قويمة.

ويعتبر المثقّف العربي واحدا من المثقّفين الّذين أدلوا بدلوهم في خلق الأفكار الدّاعمة للنّهضة والرّقيّ الفكري والمعرفي والحضاري. وتعدّد المثقّف العربي في هذا المجال وتنوّعت الأفكار ووُلدت المميتة والميّتة من جديد، وأبدع في كلّ الميادين كالأدب والفقه والعلوم. وبات من اللّازم الاحتفاء بالمثقّفين وذكر خصالهم ومناهجهم الّتي تميّزوا بها. ومن أبسط مزايا العلم العناية بالمثقّفين القدامى والمعاصرين، وحتّى في نقدهم، يجد الباحث ضالّته في البحث عن المعارف والحِكم. ومن ثمّ، بات الاطّلاع على ما صاغه الآخر والسّابق من المفكّرين والعلماء والمثقّفين، منهج من مناهج تحصيل العلم والمعرفة واكتساب القدرة على التّفكير السّليم والرّؤية النّقديّة القويمة. ويُلزم البحث عن أدوات الرّقيّ وآليّات الإبداع الخوض في مناهج السّلف والإحاطة الشّاملة بما حرّروا داخل ثنايا السّطور من أفكار وعلوم. وحريّ بنا التّطرّق إلى مرآة الآخر في الأزمنة المنقضية ومعرفة أساليبهم ودراسة مناقبهم وخصالهم.

وخُصّص هذا البحث لبيان دور المثقّف العربي بشكله العامّ، والمثقّف التّونسي في شكله الخاص، من خلال التّطرّق إلى الشّيخ محمد الخضر حسين الّذي يعتبر أحد أقطاب العلم والمعرفة في العالم العربي المعاصر. وخاض في عديد المجالات وأبدع فيها مثل العلوم الإسلاميّة واللّغة والأدب والشّعر والصّحافة.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث المتواضع إلى تقديم صورة نقيّة عن الشّيخ محمّد الخضر حسين، من خلال التّطرّق إلى سيرته وآثاره العلميّة والسّياق الحضاري والتّاريخي في عصره من خلال الظّروف السّياسيّة في حياته، ودوره السّياسي والاجتماعي في المجتمع، من خلال الإجابة على هذه الإشكاليّة الرّئيسيّة: **هل أدّى الشّيخ محمّد الخضر حسين دوره السّياسي والاجتماعي والحضاري على الوجه الأكمل، أم كان مثقّفا زئبقيّا يعمل لصالحه الشّخصي؟**

وتتفرّع الإشكاليّة الرّئيسيّة إلى الأسئلة التّالية:

1- فيم تتمثّل سيرة الشّيخ محمّد الخضر حسين ومسيرته؟

2- ماهي الظّروف السّياسيّة في عصره؟

3- فيم يتمثّل دوره السّياسي والاجتماعي داخل أسوار السّلطة وصلب البيئة الاجتماعيّة؟

2- الشّيخ محمّد الخضر حسين سيرة ومسيرة:

ورد في معجم الأدباء أنّ "محمّد الخضر حسين بن علي بن عمر الحسني التّونسي عالم إسلامي وأديب وباحث، يقول الشّعر، من أعضاء المجمعين العربيّين بدمشق والقاهرة، ومن تولّوا مشيخة الأزهر، وُلد في نفطة من بلاد تونس وانتقل إلى تونس مع أبيه وتخرّج بجامع الزّيتونة ودرّس فيه وأنشأ مجلّة السّعادة العظمى، ووُلّي القضاء ببنزرت واستعفى وعاد إلى التّدريس بالزّيتونة وعمل في لجنة تنظيم المكتبتين العبدليّة والزّيتونيّة. وزار الجزائر ثلاث مرّات، ويقال أصله منها، ورحل إلى دمشق وعاد

إلى تونس فكان من أعضاء لجنة التّاريخ التّونسي وانتقل إلى المشرق واستقرّ في دمشق مدرّسا في المدرسة السّلطانية وانتدبته الحكومة العثمانيّة من خلال تلك الحرب للسّفر إلى برلين مع الشّيخ عبد العزيز جاويش (1876-1929م) وآخرين، فنشر بعد عودته إلى دمشق سلسلة من أخبار رحلته في جريدة المقتبس الدّمشقيّة. ولمّا احتلّ الفرنسيّون سوريا، انتقل إلى القاهرة وعمل مصحّحا في دار الكتب خمس سنوات. وتقدّم لامتحان العالميّة الأزهريّة فنال شهادتها، ودرّس في الأزهر. وأنشأ جمعيّة الهداية الإسلاميّة، وتولّى رئاستها وتحرير مجلّتها. وترأّس تحرير مجلّة نور الإسلام الأزهريّة ومجلّة لواء الإسلام. ثمّ كان من هيئة كبار العلماء، وعيّن شيخا للأزهر واستقال وتوفّي بالقاهرة ودُفن بوصيّة منه في تربة صديقه أحمد تيمور باشا (1871-1930م).

وكان هادئ الطّبع وقورا خصّ قسما كبيرا من وقته لمقاومة المستعمِر وانتخب رئيسا لجبهة الدّفاع عن شمال إفريقيا في مصر وله تآليف منها "حياة اللّغة العربيّة" و"الخيال في الشّعر العربي" و"مناهج الشّرق" و"الدّعوة إلى الإصلاح" و"طائفة القاديانيّة" و"مدارك الشّريعة الإسلاميّة" و"الحرّيّة في الإسلام" و"نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" و"نقض كتاب في الشّعر الجاهلي وخواطر الحياة" و"بلاغة القرآن" و"محمّد رسول الله" و"السّعادة العظمى" و"تونس وجامع الزّيتونة"". (الجبوري، 2003، صفحة 270)

لقد وُلد الشّيخ الخضر حسين سنة 1876م، وينحدر الشّيخ من عائلة العمري المنتمية إلى إحدى العائلات الجزائريّة وتسمّى والدته حليمة السّعديّة، وتنتمي عائلة والدته إلى وادي سوف الجزائريّة. ونشأ بمنطقة نفطة التّابعة لولاية توزر التّونسيّة إذ يقول الشّيخ "نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التّونسي يقال لها نفطة وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهبّ في مجالس علمائها. وكان حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشّعر فتذوّقت طعم الأدب من أوّل نشأتي وحاولت وأنا في سنّ الثّانية عشرة نظم الشّعر". (الجوّادي، 2014، صفحة 17)

وأصل اسم الشّيخ محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، ومثّلت هجرته إلى بلاد الشّرق تغيير في اسمه وحذفت كلمة "بن" على عرف المشارقة وتغيّرت كلمة الأخضر إلى خضر، وعُرف في بلاد مصر بالشّيخ الخضر التّونسي أو محمّد الخضر التّونسي حتّى أصبح اسمه متعارفا عليه من قبل الجميع وهو محمّد الخضر حسين. زاول تعليمه في البداية بمدينة نفطة فدرس الدّين الإسلامي والأدب العربي وحفظ القرآن. ثمّ انتقل إلى العاصمة تونس أين التحق بجامع الزّيتونة لطلب العلم أين وجد خاله الّذي كان يعمل مدرّسا، ونال الشّيخ الخضر حسين الشّهادة العالميّة سنة 1898م، وهو في سنّ 23، ثمّ بدأ العمل في ميدان الصّحافة وأنشأ مجلّة السّعادة العظمى الّتي اعتنت بالنّشاط الفكري والعلمي والدّفاع عن الحقوق الاجتماعيّة و"قد نجحت المجلّة في هذا بفضل عقليّة واعية، ونفس مخلصة للفكرة الّتي سيطرت على وجدان صاحبها". (الجوّادي، 2014، صفحة 19)

وسافر إلى دمشق عبر مصر ثمّ إلى تركيا ثمّ إلى ألمانيا، ثمّ عاد إلى تونس وعمل مدرّسا في جامعة الزّيتونة وعمل في لجنة تنظيم المكتبتين العبدلّيّة والزّيتونيّة. واشتدّ الخناق عليه من قبل سلطات الاحتلال الفرنسيّة و" كان على فرنسا أيضا التّغلب على عدد من المقاومة بعد عام 1900. وفي الشّمال، امتلكت الجزائر وتونس والمغرب، الّذي تمّ احتلاله في ماي 1914، وآخر الأراضي الّتي احتلّها الفرنسيّون، وسيضطرّون إلى حمل السّلاح مرّة أخرى"(Kakée, 1990, p. 42) . حيث ارتأى أن يرجع إلى دمشق وعمل في المدرسة السّلطانيّة، ومن دمشق أدّى فريضة الحجّ من خلال مروره بسكك الحديد بالحجاز الّتي كانت وسيلة نقل جديدة. ورجع إلى دمشق ليفرض نفسه من خلال علمه أن يكون واحدا من أعضاء أوّل مجمع عربي تأسّس وهو المجمع العلمي العربي الّذي تأسّس سنة 1919م، وهذا قدّر للأستاذ الخضر أن يتنفّس الأمل في دولة إسلاميّة عربيّة مستقلّة حديثة. (الجوّادي، 2014، صفحة 27/26) ولكن اشتدّ الخناق عليه من قبل المحتلّ الفرنسي، إذ هاجر إلى مصر وبقي فيها وتعدّدت

انتاجاته العلميّة والفكريّة، وتحصّل على الجنسيّة المصريّة، وظلّ يعمل في كلّيّات الجامع الأزهر وحرص على ميدان التأليف والنّقد والمحاضرات والشّعر والأنشطة الفكريّة المتنوّعة. وعمل رئيسا لتحرير مجلّة نور الإسلام التّابعة لجامعة الأزهر.

ويعتبر الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور (1879م- 1973م) "شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأعظم وفروعه الزّيتونيّة، عَلَم من أعلام هذا العصر وركن من أركان الحركة الإصلاحيّة، وإمام مجتهد من الأئمّة الّذين يوضّح الله بهم طريق الإنسانيّة من قرن إلى قرن ومفخرة تونس العلميّة ورائد الحركة الإصلاحيّة، فيها عزم على انجاز مشروعه الإصلاحي من خلال التّعليم الزّيتوني". (الغالي، 1996، صفحة 05) أحد رفاق الشّيخ الخضر، إذ كان من خيرة أقرانه وزملائه في الزّيتونة وقد اشتركا في الأفكار والتّوجّهات الفكريّة والعلميّة، وكانت العلاقة بينهما مبنيّة على العلم والمعرفة والمودّة والرّحمة. ونلاحظ الانصهار بين الشّخصيّتين من حيث المسيرة والانتاجات العلميّة والمناصب السّياسيّة والفكريّة و"انعقدت بينهما صداقة بدأت سنة 1899م، كان يحوطها العلم والفكر وتحمل في طيّاتها روح الصّفاء ولهجة الصّدق، وكان في محطّات حياتهما كثير من التّشابه فالشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور تولّى مشيخة الجامع الزّيتوني وتولّى الشّيخ محمّد الخضر حسين مشيخة الجامع الأزهر، وهو أوّل من يتولّى هذا المنصب من غير مصر، ومن مظاهر التّشابه بينهما أنّهما كانا من المعتنين بالأدب إضافة إلى عنايتهما بالعلوم الشّرعيّة، وكان ذلك نادرا بين أقرانهما، كما تولّى الاثنان الرّدّ على الشّيخ علي عبد الرّزاق (1888-1966م) في كتابه الإسلام وأصول الحكم، كما دعا كلاهما الاعتماد الإصلاح والنّظام الاجتماعي، فكتب محمّد الخضر حسين "من رسائل الإصلاح" وكتب ابن عاشور "أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام". (الطّبّاع، 2005، صفحة 68/67)

واستقال الشّيخ الخضر حسين من مشيخة الأزهر سنة 1954م، وعاش حياته في الزّهد إذ يكفيه "كوب لبن وكسرة خبز وعلى الدّنيا السّلام". (الجوّادي، 2014، صفحة 38) وتزوّج الشّيخ الخضر أربعة مرّات ولم يرزق بأولاد وفارق زوجته الأولى عندما اضطرّ مغادرة تونس عندما رفض أهل زوجته الموافقة على اصطحابها خارج تونس، وتزوّج الثّانية في سوريا، ثمّ انفصلا بالطّلاق، وزوجته الثّالثة كانت مصريّة وعاش معها ثلاثة عقود، ثمّ توفّيت، وأمّا الرّابعة فهي مصريّة، وله ثلاثة أشقّاء وأشهرهم شقيقه زين العابدين والّذي عمل مدرّسا في الجامع الأموي.

تتلمذ الشّيخ محمد الخضر حسين على العديد من الشّيوخ في جامع الزّيتونة، وكان طالبا للعلم وهو من أهمّ الأسباب الّتي جعلت عائلته تنتقل إلى العاصمة، ويعدّ جامع الزّيتونة في تونس مثل الجامع الأزهر في القاهرة وجامع القرويّين في المغرب من جهة تهيئة الطّالب دينيّا وعلميّا وخُلقيّا إلى أعلى منزلة ومرتبة يصل إليها. ومن شيوخ الخضر حسين في الجامع الأعظم خاله الشّيخ محمّد المكّي بن عزّوز (1854-1916م) ومحمّد البشير الفورتي (1884-1954م) وأحمد الشّريف (1840-1919م) ومحمّد جعيّط (1886-1970م) ومحمّد النّجّار (1839-1913م) وعمر بن الشّيخ (1823-1911م) وسالم بوحاجب (1827-1924م).

ومن آثار الشّيخ الخضر حسين عديد المقالات والدّراسات والكتب القيّمة في عديد المجالات؛ ومنها العلوم الإسلاميّة نذكر منها دراسات في الشّريعة الإسلاميّة وشملت عديد المحاور والاهتمامات منها الوجود الإلهي وكيفيّة استنباط الأحكام والقوانين من الكتاب والسّنّة النّبويّة، وكتاب الشّريعة الإسلاميّة صالحة لكلّ زمان ومكان وتضمّن عديد القضايا الفلسفيّة في الدّين الإسلامي ومنها المناهج التّشريعيّة كالاستحسان والاستصحاب والمقاصد الشّرعيّة مثل حفظ المصالح ودرء المفاسد، وكتاب محاضرات إسلاميّة المتضمّن لمجموعة من المحاضرات الّتي تطرّقت إلى بعض من القضايا الإسلاميّة والتّاريخيّة والفلسفيّة مثل التّصوف قديما وحديثا وعلماء الإسلام في بلاد الأندلس والحرّيّة في الإسلام، وكتاب نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم وفيه نقد وتفنيد لآراء الشّيخ علي عبد الرّزّاق الّتي تطرّق فيها إلى طبيعة الخلافة في الإسلام ووجهتها الاجتماعيّة. وللشّيخ الخضر حسين عديد من المقالات في مجال الإصلاح الاجتماعي، وقد جمعت في كتابين وعنوان الأوّل الدّعوة إلى الإصلاح والثّاني

رسائل الإصلاح. وأمّا كتاب الدّعوة إلى الإصلاح فيمكن القول بأنّه كتاب مبتكر في فقه الدّعوة والمجتمع المدني في ظلّ الإسلام، ويتضمّن هذا الكتاب مجموعة من الفصول منها الحاجة إلى الدّعوة والدّعوة في نظر الإسلام والمبادرة إلى الدّعوة، كما يتناول كتاب الدّعوة إلى الإصلاح مجموعة من المقالات وتتعلّق بموضوعين مهمّين؛ تتعلّق المجموعة الأولى منها بالتّعليم الدّيني، ويعرض في المجموعة الأخرى دور العلماء وأثره في حفظ الدّين ورقيّ الشّرق في حياة الأمّة. أمّا كتابه الآخر في هذا الميدان هو رسائل الإصلاح، ويتناول مجموعة من الفصول الّتي تتحدّث حسب تعبير لغتنا العصريّة عن بعض القيم والقيم المضادّة، وذلك من خلال فكر إسلامي مستنير ويضمّ الكتاب الفصول الآتية؛ المروءة ومظاهرها الصّادقة والإلحاد وأسبابه وطبائعه ومفاسده.

ولا تخلو آثار الشّيخ الخضر من الدّراسات الهادفة والهامّة مثل تلك الّتي كتبها حول القاديانيّة والبهائيّة. ومن أهمّ كتبه "محمد رسول الله وخاتم النّبيّين" وفيه يعرض الأديان قبل البعثة المحمّديّة، ثمّ يتحدّث عن الإسلام ودور محمّد صلّى الله عليه وسلم في نشر الدّين الإسلامي، وتحدّث في كتابه "تراجم الرّجال" عن 14 عَلَم من أعلام المسلمين على مدى تاريخ الإسلام الممتدّ ومنهم الخلفاء الرّاشدين وأئمّة الشّيعة. وفي كتابه "أسرار التّنزيل" فقد فسّر فيه جملة من السّور القرآنيّة والآيات المتفرّقة معتمدا معارفه ومكتسباته اللّغويّة، وفيه تفسير لفاتحة القرآن وسورة البقرة وتفسير آية من سورة آل عمران وتفسير آيات من سورة الحجّ، وتفسير آيات الصّيام وثلاث آيات من سورة الأنفال وأربع آيات من سورة يونس وخمس آيات من سورة ص، وله كتاب "دراسات في اللّغة" وضمّ مجموعة من البحوث ومنها الأمثال في اللّغة العربيّة واللّهجات العربيّة في هذا العصر والمجاز والنّقل. وتضمّن كتابه "دراسات في العربيّة وتاريخها" بعض البحوث الّتي ألقاها في المجمع اللّغوي ومنها القياس في اللّغة العربيّة وحياة اللّغة العربيّة، والاستشهاد بالحديث في اللّغة. أمّا كتابه "نقض كتاب في الشّعر الجاهلي" وهو كتاب ردّ به على الدّكتور طه حسين (1889-1973م) بطريقه علميّة حيث بيّن وجوه الخطأ والقصور فيه. وتضمّن كتاب "الخيال في الشّعر العربي" مجموعة من الدّراسات الأدبيّة الأصيلة في شكل فصول منها الخيال في الشّعر العربي والشّعر البديع في نظر الأدباء وأثر الشّعر في التّروح عن النّفس وإثارة العواطف الشّريفة. ونموذج من نقد الشّعر والشّعر المصري في عهد الدّولة الأيّوبيّة ونظره في شعر حسّان بن ثابت (565-655م)، والخطابة عند العرب ونشأة علم البلاغة. وللشّيخ الخضر حسين ديوان شعر عنوانه "خواطر الحياة" وكتاب في "الرّحلات" وكتاب "السّعادة العظمى" و"هدى ونور" و"مناهج الشّرق" .

2- الظّروف السّياسيّة في عصر الشّيخ الخضر حسين:

عاش الشّيخ الخضر حسين منذ صغر سنّه حياة سياسيّة غلب عليها الاحتلال الفرنسي للدّول المستضعفة ومنها الدّولة التّونسيّة ودول شمال إفريقيا والشّرق مثل تونس والجزائر وسوريا. إذ يهمّنا الحديث في هذا العنصر عن الاحتلال الفرنسي لتونس وللجزائر وسوريا وكذلك احتلال إنجلترا لمصر باعتبار أن الشّيخ الخضر حسين قد عاش فترة الاحتلال برمّتها وانتقل بين هذه الدّول منحدرا من الجزائر وتونس واتّجه إلى الشّرق (سوريا) واستقرّ بمصر وتوفّي في أراضيها.

ونستهلّ الحديث عن الاحتلال الفرنسي في تونس، إذ في جويلية من سنة 1881م، تمّ احتلال مدينة صفاقس التّونسيّة من خلال قذف المدينة بالقنابل المدفعيّة الّتي قوبلت بالمقاومة من قبل أهل المدينة وشيوخها وأعيانها، وهبّ لنجدتها عديد العروش المجاورة منها البعيدة. وقد استعانت القوّات الفرنسيّة بجيش الصّادق باي للقضاء على المقاومة في صفاقس.

وتمّ ذلك بكلّ سهولة ولكن بعد خسائر فادحة في القوّات الفرنسيّة وسقط العديد من الشّهداء في هذه المعارك. (عشار، 2014، صفحة 64/63) وبدأت فرنسا مدّ جذورها داخل البلاد التّونسيّة من العاصمة إلى الجنوب إلى الصّحراء، من خلال تقتيل النّاس وترويعهم وتكثيف عمليّات النّهب والسّرقة والتّرويع والسّلب لكافّة ممتلكات التّونسيّين من أرزاق وممتلكات ومواشي. ثمّ انتقلت فرنسا إلى الجنوب واحتلّت مدينة قفصة وواحات الجريد ومدن الجنوب الغربي الّذي ينحدر منه الشّيخ

الخضر حسين، واستقرّ العديد من الثّوّار والمقاومين امتدادا من مدينة تمغزة إلى واحة الجريد. وكانت عمليّاتهم في مقاومة المحتلّ الفرنسي عديدة؛ ممّا ساهم في اضطرار فرنسا إرسال جيوشها من الجزائر والشّمال التّونسي والسّيطرة على منطقة الجنوب الغربي التّونسي بعد عمليّات كرّ وفرّ مع رجال الثّوّار التّونسيّين. و"مع بداية شهر ديسمبر سنة 1881م، استطاعت الجيوش الفرنسيّة السّيطرة الكاملة على منطقة الجنوب الغربي للبلاد. وتمّ بذلك القضاء على المقاومة في تونس، ليس كلّها ولكن بقيت هناك بعض المقاومات ونشبت بعض الثّورات". (المرزوقي، 1998، صفحة 135) ومن ثمّ، فقد عانت البلاد التّونسيّة من ويلات الاحتلال الفرنسي، وعاشت أوضاعا اجتماعيّة متردّية وقاسية، إذ استولت فرنسا على أراضي الأوقاف و"الوقف في اللّغة بفتح الواو وسكون القاف، مصدر وقف الشّيء وأوقفه بمعنى حبسه وأحبسه. وتجمع على أوقاف ووقوف. وسمّي وقفا لما فيه من حبس المال على الجهة المعيّنة". (منظور، صفحة 360/359) وفي الاصطلاح "تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة". (الزّركشي، 1993، صفحة 268) حيث بحث المحتلّ الفرنسي في الفقه الإسلامي على صيغة تجيز للمستوطنين الاستيلاء على أراضي الأوقاف بحجج واهية. أمّا في الجانب التّعليمي فقد فرضت فرنسا نظامها على التّونسيّين وطغت اللّغة الفرنسيّة على تونس أكثر من اللّغة العربيّة الأمّ. وحاربت فرنسا المؤسّسات الدّينيّة في تونس وبنت المدارس الخاصّة محاولة لطمس الهويّة العربيّة وإثراء اللّغة والهويّة الفرنسيّتين، و"بتطبيق برامج خاصّة لإخراج الجيل النّاشئ عن قوميّته العربيّة الإسلاميّة وقطع الصّلة بينه وبين ماضيه وتاريخه لنتمكّن من دمجه في الثّقافة الفرنسيّة". (وادي، 1982، صفحة 74) ومن ثمّ، فقد كان جامع الزّيتونة الأعظم النّواة الأساسيّة في تلقين خرّيجيه الولاء لتونس وحبّ الوطن والذّود عنه وغرس قيم الدّفاع عن الوطنيّة والهويّة والعروبة والإسلام. إذ انبثق عديد الشّخصيّات الوطنيّة الّتي جابهت الاحتلال الفرنسي ووقفت في وجهه مثال البشير صفر (1856-1917م) وعبد العزيز الثّعالبي (1876-1944م) وعلي بلهوان (1909-1958م).

ومن الملاحظ أنّ الاحتلال الفرنسي لم يول الاهتمام بالجانب الصّحّي وضمان حقّ التّونسيّين في الصّحّة. وأهملت فرنسا واجبها في ميدان الصّحّة كلّ الإهمال، فلم تخصّص له في باب الميزانيّة التّونسيّة من الاعتبارات ما يكفي للقيام بشؤون الصّحّة. فمن أجل علاج سكّان تونس البالغين ثلاثة ملايين نسمة لا يوجد غير 4285 سرير للعرب في مختلف المستشفيات والمصحّات. خصّ العاصمة وحدها ألفي سرير، بينما يوجد للأوروبيين مستشفى كبير به 743 سرير ضمّ إليه المستشفى الإيطالي الّذي تسلّمته السّلطات الفرنسيّة بعد انتهاء الحرب العالميّة الثّانية وبه 240 سرير أي أنّه كان لعلاج الأوروبيّين وحدهم حوالي 1000 سرير تقريبا". (رياض، 1965، صفحة 348) ولم تقاوم فرنسا الأمراض والأوبئة المعدية والفتّاكة بالإنسانيّة مثل مرض السّلّ حيث يوجد مستشفى واحد في تونس آنذاك يعالج هذا المرض. ومن ثمّ، فقد بلغت نسبة الوفيات بمرض السّلّ 33.8% في سنة 1939 في كلّ عشرة آلاف من السّكان الوطنيّين. بينما نجد نسبة الوفيات في صفوف الفرنسيّين 14 في كل عشرة آلاف ميناء الفرنسيّين. ولم تهتمّ فرنسا أيضا بعلاج مرض الرّمد الّذي يصيب العيون إذ أنّ نسبة انتشاره فاقت 30% من السّكّان التّونسيّين في الشّمال و 90% في المناطق الصّحراويّة الجنوبيّة، ولم تول فرنسا الاهتمام بالطّفولة فهي منسيّة وعاش الأطفال في الحضيض الاجتماعي والنّفسي حيث بلغت نسبة الوفيات في صفوف الأطفال 33% من سكّان التّونسيّين حيث عاش التّونسيّون أسوأ حياتهم في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسّياسي في عصر المحتلّ الفرنسي إذ أنّ "40% من العائلات التّونسيّة لا يجدون الغذاء الكافي، ممّا أدّى إلى انتشار المجاعات عاما بعد آخر". (رياض، 1965، صفحة 349) ولعلّ الفرق شاسع بين كلمتي الاستعمار والاحتلال ومن الوجوب عند دراسة التّاريخ والخوض في طبقاته وجب استبدال كلمة المستعمر الفرنسي بالمحتلّ الفرنسي الّذي حاول إبادة البشريّة والجنس الإنساني دون رحمه أو رأفة.

ولا يفوتنا أن نتطرّق إلى الظّروف السّياسيّة الّتي واجهت الجزائر حيث بدأ الاحتلال الفرنسي للأراضي الجزائريّة منذ سنة 1830، إذ أنّ الحملة العسكريّة الفرنسيّة حملت داخل طيّاتها حبّ السّيطرة واستنزاف الثّروات واستعمالها في صالحها. ومن ثمّ فإنّ احتلال الجزائر كان مخطّطا من طرف فرنسا فهو مشروع سبق التّخطيط والإعداد له، وذلك للسّيطرة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والنّهم الأوروبي في الاستعباد والاستبعاد للدّول الإفريقيّة المستضعفة. وتعتبر العوامل الاقتصاديّة من الأسباب الرّياديّة في صراع الدّول الأوروبية حول الهيمنة. ومن ثمّ أصبح الاستيلاء على الدّول المستضعفة أمرا حتميّا لتحسين الأوضاع الاقتصاديّة الفرنسيّة على حساب الجزائر وممتلكاتها وثرواتها الطّبيعيّة ومواردها البشريّة، وتريد فرنسا "الحصول على الموارد الطّبيعيّة الّتي كانت تزخر بها منطقة المغرب العربي بأبخس الأثمان لحاجة الصّناعة الأوروبيّة إليها مع إعادتها إلى مواد محوّلة ويبيعها بأسعار خياليّة لتلك الدّول". (ضيف الله، 1998، صفحة 299) ومن الملاحظ أنّ فرنسا احتالت على الجزائر من خلال عدم تسديد القروض الّتي قدّمتها إليها الجزائر من قمح وشعير لمواجهة المجاعة الّتي ضربت فرنسا. ومن ثمّ، امتنعت فرنسا عن دفع الأموال للجزائر وأرادت احتلالها فيما بعد. وتمثّل دهاء فرنسا في إرسالها قنصلا يستفزّ الدّاي الجزائري ليفتعل حادثا يكون فيما بعد سببا في قطع العلاقات الدّبلوماسيّة بالجزائر وتعلن حربها على الجزائر الأبيّة من خلال حادثه المروحة إذ "جرى حوار بين الدّاي حسين والقنصل الفرنسي يوم 29 أفريل سنة 1827م عشيّة عيد الفطر دون حضور مترجم، تمحور اللّقاء حول العلاقات الدّبلوماسيّة بين البلدين وحول شكوى الدّاي فيما يخصّ عدم تلقّيه الرّدّ على رسائله بخصوص الدّيْن وانتهى بمشهد ضربة المروحة الّتي فيها غضب الدّاي حسين حول عدم تسديد فرنسا لهذا الدّيْن".(Bacha, 2005, p. 18) ومن ثمّ بعثت فرنسا أسطولها الحربي وامتدّ الحصار ثلاث سنوات وكانت معارك بحريّة دامية، ويعتبر هذا الحصار بداية لخطّة سياسيّة للقضاء على القوّات البحريّة وتمهيدا للاحتلال الجزائر. وفي يوم 19 جوان 1830 تواجهت الجزائر وفرنسا وانهزمت الجزائر وفقدت فيها آلاف الرّجال ومدفعيّاتها وأسلحتها وبارودها.

وقد توغّل الاغتصاب الفرنسي للأراضي الجزائريّة بعمق فمارس العديد من الانتهاكات النّفسيّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، وولّد مرارة وإحساسا نفسيّا مضن على الطّبقة العليا للهرم الاجتماعي في الجزائر، وهو السّبب المباشر في هجرة الجزائريّين للدّول المجاورة. ولقد أوهم الاحتلال الجزائريّين بالحماية ولكنّه سعى في الحقيقة إلى استنزاف الثّروات والقضاء على الثّورة الجزائريّة من خلال أدواته العدائيّة وسعى إلى ممارسة الأفعال الشّنيعة وتقتيل النّاس وتجويعهم لتصبح الجزائر بلد المليون شهيدا. وقد دمّر الاحتلال طاقتها الحيويّة والبُنى التحتيّة وتركها هشيما متراكما، واشتدّت مظالم الفرنسيّين بعد الاحتلال، وأطنبوا في إذلال الجزائريّين الأباة، وأذاقوهم ألوانا من العذاب، وسلبوهم ثرواتهم ومزارعهم، وانتهكوا حرمات المساجد والمقابر، وذبحوا سكّان قرى كاملة، وأبادوا قبائل إبادة تامّة. ولقد تعدّدت انتصارات جيش التّحرير الجزائري وتلاحقت في جلّ المجالات وأبرزها المجال السّياسي والعسكري على حساب المستعمِر المستحوِذ على مقاليد السّلطة المدعّم لقانون الغاب؛ القويّ يأكل الضّعيف، فانهارت بذلك سياستهم العقيمة وفشلوا في وضع أقدامهم وتركيزها في الأراضي الجزائريّة، وتزعزعت قواهم واندثرت أمام الثّورة الجزائريّة، لتصبح هذه الأخيرة القوّة الضّاربة لفرنسا والمنهكة لها، ونجحت إعلاميّا وعسكريّا، إذ ساهمت في نيل الاستقلال والحرّيّة من خلال ثورة الأحرار وافتكاك حقوقهم المهضومة وأراضيهم المغتصبة حتّى وإن كلّفهم ذلك أنهارا من دماء الشّهداء المكافحين، فهؤلاء لم ينتظروا أن تمطر السّماء حمما وصواعقا على العدوّ الفرنسي.

وتعتبر سوريا وجهة الشّيخ الخضر حسين، فقد عانت الاحتلال الفرنسي وما يسمّى بنظام الانتداب سنة 1920 حيث فرضت فرنسا على سوريا هذا النّظام، لكنّ المؤتمر السّوري العامّ قرّر عدم الامتثال لهذا النّظام المستبدّ وعدم الاعتراف بهذا الاتّفاق وهذه المعاهدة. وكانت أوّل المواجهات بين فرنسا وسوريا كما يلي؛ تكوّنت القوّة العسكريّة الفرنسيّة من 9000 جندي

ومدفعيّات ودبّابات ورشّاشات وطائرات، في مقابل 3000 متطوّع سوري وبعض الأسلحة البيضاء. واستمرّت المعركة ساعتين، استشهد فيها حوالي 800 شهيد سوري. وسار الفرنسيّون على جثث شهداء سوريا وبدأ احتلال سوريا الأبيّة، واحتلّ الجيش الفرنسي الثّكنات العسكريّة وهيمنت قوّته على سوريا باستعمال الطّرق البشعة والمهينة للذّات الإنسانيّة، و"فرض على الشّعب السّوري دفع غرامة ماليّة تقدّر بعشرة آلاف بندقيّة للجيش الفرنسي، وتسليم كبار المدنيّين والعسكريّين السّوريين للمثول أمام المحاكم العرفيّة وإنهاء الحكم الفيصلي، وتمّ تنفيذ حكم الإعدام في العديد من الوطنيّين ونفي العديد منهم". (المعلّم، 1985، صفحة 10) ومن ثمّ اعتمدت فرنسا سياسة التّجزئة لسوريا للسّيطرة الكلّيّة عليها من خلال القتل والتّعذيب والتّشريد للسّوريّين، ممّا انجرّ عن هذه السّياسة قيام الثّورات والمقاومات من طرف السّوريّين في دمشق وباقي البلاد؛ مثل ثورة الشيخ صالح العلي (1883-1950م) وثورة حوران. ومثّلت هذه الثّورات مصدر إزعاج لفرنسا، إلى أن وقعت الثّورة السّوريّة الكبرى سنة 1925، وامتدّت إلى عام 1927 في جبال الدّروز، ولاقت فرنسا هزيمة قاسية من قبل الدّروز وثوّارها الّذين بدورهم دخلوا دمشق وسيطروا على أجزائها.

ومن الملاحظ أنّ المقاومة السّوريّة لم تتوقّف بعد فشل الثّورة العسكريّة بل امتدّت من خلال ما سمّي بالميثاق الوطني باعتباره دستور للحركة الوطنيّة الثّوريّة. وحمل الميثاق السّوري مطالب وحقوق السّوريّين وفيه دعوة فرنسا إلى "الاعتراف باستقلال سوريا التّامّ، وحقّها في التّمثيل الخارجي، وإنشاء حكومة وطنيّة مستندة إلى الدّستور تضعه جمعيّة تأسيسيّة منتخبة انتخابا مباشرا بالاقتراع العامّ، وتحقيق الوحدة السّوريّة، وإدخال الإصلاحات اللّازمة في القضاء ونظام النّقد وإعلان العفو العامّ عن السّياسيّين، وإلغاء الغرامات الحربيّة، وتعويض منكوبي الثّورة، وتحويل الانتداب إلى معاهدة في فرنسا وإدخال سوريا في عصبة الأمر". (قرقوط، 1977، صفحة 292/291) ومن ثمّ، صدر في سوريا سنة 1944 بيان مشترك بين ممثّلي فرنسا وسوريا يقضي بتسليم فرنسا إدارة المصالح المشتركة إلى الحكومة السّوريّة بصفة رسميّة. ووافقت فرنسا على استقلال سوريا بصفة رسميّة محقّقة لسيادتها وسيادة أراضيها. إلّا أنّ فرنسا بدأت في المراوغة من جديد من خلال المماطلة والتّسويف للحدّ من سيادة سوريا، إلّا أنّ سوريا رفضت احتفاظ فرنسا بقواعد حربيّة على أراضيها، وطالبت بتسليم الجيش لسوريا فقط، وضمان سيادتها في الدّاخل والخارج. حيث شهدت سوريا أعمال العنف والقتل وإرهاب متواصل، وحرب دامية، وتعرّضت دمشق "لقصف مدفعي رافقته أعمال النّهب والإرهاب استمرت حتّى يوم 31 آيار سقط خلالها 616 شهيد وبلغ الجرحى حوالي 2072 جريحا". (المعلّم، 1985، صفحة 38) ومن ثمّ شهد العالم ذلك الصّمود السّوري في وجه الاحتلال الفرنسي وبسالة القوّات السّوريّة ورباطة جأش المواطن السّوري وبسالته، حيث أصرّ على طرد فرنسا وجلائها من أراضيها الطّاهرة سنة 1946.

وننتقل إلى الحديث عن الاحتلال البريطاني للأراضي المصريّة، فمن الملاحظ أنّ باسم الدّيمقراطيّة يساهم الاحتلال في عرقلة الحركات الوطنيّة وفي الواقع يسعى الاحتلال إلى شلّ الأحزاب الحقوقيّة، وباسم حريّة الرّأي والتّعبير والمصلحة الوطنيّة ينقضّ المحتلّ على الاتّفاقيّات والمعاهدات، وباسم الصّحافة تذيع أبواق الاستعمار الباطل والكذب وتنتشر التّهم الجزافيّة. ومن الملاحظ أنّ مصر كانت محمل مطامع الأتراك حتّى 1914، إذ عاشت في أزمة ماليّة، وطالب تركيا مصر سنة 1873 تأدية ديونها الّتي بلغت قيمتها 675 ألف جنيه إلى أن دخل الرأسماليّون مصر بدفع الاستثمار إذ "كان الرّأسماليّون البريطانيّون يقترحون المشروعات على الخديو ويعقدون معه صفقات لينفّذوها، ثمّ يقرضونه المال الّذي يدفعه للمقاولين، أي لهم أنفسهم". (برينز، دون تاريخ طبعة، صفحة 07) ومن ثمّ دخلت مصر مجدّدا في المديونيّة لأنّ الأرباح تذهب لصالح البريطانيّين إلى أن صدر بلاغ مرسل من قنصل بريطانيا العامّ في مصر وفيه "لا نستطيع استرداد سيادتنا حتى يقضي على السّيطرة العسكريّة الّتي تنتقل على كاهل البلاد الآن وإنّي لا أعتقد أنّه لابدّ أن تطرأ مشكلة حادّة قبل أن يمكن الوصول إلى حلّ مرضي المسألة المصريّة وأنّه من

الخير أن تتعجّلها (أي المشكلة الحادّة) بدل أن نحاول تأخيرها". (بريتز، دون تاريخ طبعة، صفحة 12) إلّا أنّ مؤتمر القسطنطينيّة سنة 1882 الّذي يفرض عدم التّدخّل في مصر باسم مختلف الحكومات، إلّا أنّ بريطانيا تجاوزت هذه الاتّفاقيّة وضربت الإسكندريّة واستولت عليها برّا وبحرا و"كان ذلك في ذات اليوم الّذي هزم فيه البريطانيّون عرّابي وأنصاره. وبعد يومين سقطت القاهرة وأصبح الاحتلال البريطاني حقيقة واقعة. ومن الملاحظ أنّ بريطانيا لها ثلاث مهمّات في مصر؛ الأولى تجاه الحضارة والإنسانيّة تحاول إذ أرادت إنقاذ مصر من الفوضى وإعادة حياة الطّمأنينة والاستقرار والاستثمارات المتنوّعة، وإصلاح حال الفلّاح، وإدخال المدنيّة على المجتمع المصري. ولم تلتجئ إنجلترا لهذه المهمّة إلّا لإخفاء مطامعها ونزواتها أمام الرّأي العامّ، إذ "لم تقل أنجلترا بهذه المهمّة إلّا لتبرير موقفها أمام فريق الرّأي العامّ الإنجليزي الّذي كان لا ينظر بعين الرّضا للاستعمار والتّوسّع أمام الرّأي العالمي، وخاصّة أمام الدّول الأوروبيّة الكبرى الّتي كانت تناولها العداء في ما يختصّ بمصير مصر". (صفوت، دون تاريخ طبعة، صفحة 215) أمّا المهمّة الثّانية فهي من أهمّ المهامّ حسب أنجلترا، وهي العمل على حماية مصالحها الخاصّة السّياسيّة والاستراتيجيّة والحربيّة، والمحافظة على قناة السّويس ومصالحها الاقتصاديّة والتّجاريّة. أمّا المهمّة الثّالثة فهي حماية الأقلّيّات والأجانب في مصر، وضمان حقوقهم ومصالحهم، حيث لعب البريطانيّون ظاهريّا دور المخلِّص لمصر من الدّيون، ولكن، تحمي أنجلترا مصالحها وتدعّم اقتصادها وموازينها التّجاريّة. ولا مناص للبريطانيّين في نظرهم "أن يكونوا هم أصحاب الحلّ والعقد في مصر صاحب النّفوذ الحقيقي في البلاد". (صفوت، دون تاريخ طبعة، صفحة 216)

وفي سنة 1892 استعادت مصدر مجدها من خلال رغبة المصريّين في بناء كيان سياسي مستقلّ، إذ أنّ الحركة القوميّة تشابه الحركات القوميّة الّتي نشأت في أوروبا سنة 1848 من حيث المبدأ الّذي يسعى إلى الاستقلاليّة والدّستوريّة والذّود عن الوطنيّة، عكس سياسة أنجلترا الّتي قتلت روح القوميّة المصريّة، وتحمل داخلها نظام استبدادي وحكم متسلّط لا يعرف هوادة في تحقيق مصالحه، ولا يمكن أن يحقّق أماني الشّعب المصري ومصالحه، إذ حطّمت أنجلترا الجانب الاقتصادي والإداري والاجتماعي. ولقد حكمت أنجلترا مصر، وتمحور احتلالها من خلال مدّ جذورها في كلّ الاتّجاهات والمجالات في مصر. وبرزت الحركة الوطنيّة بقيادة مصطفى كامل الّذي دافع عن حقوق المصريّين، وانتقد سياسة أنجلترا في مصر، ولاقت دعوته استحسان الجميع و"وجدت الحركة الوطنيّة أذانا صاغية من الفلّاحين المصريّين.. لقد كتب مصطفى كامل مقالا وجّهه إلى الأمّة الإنجليزية والعالم المتديّن نداء يبسط فيه القسوة الّتي ارتكبت". (صفوت، دون تاريخ طبعة، صفحة 273) وتواصل ضغط أنجلترا على مصر وتمزيق الحركة الوطنيّة، فألقت القنابل على بعض قرى مصر، وحكمت بالإعدام على 51 مصريّا، ونُفِّذَ الحكم في 28 منهم لاتّهامهم بقتل ضابطين وستّة جنود. وفي القاهرة جميع المدارس مضربة، وموظّفي الحكومة في إضراب، وازداد القتل في القاهرة، وفي الإسكندريّة ارتفع عدد المعتصمين من كبار وصغار، وفي بورسعيد حدثت مظاهرات عنيفة. و"بعد مضيّ أيّام قليلة على هذه الحوادث اقترح اللّورد أن تعلن الحكومة البريطانيّة بشكل رسمي انتهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلّة ذات سيادة". (بريتز، دون تاريخ طبعة، صفحة 31) وبذلك استقلّت مصر سنة 1922.

3- الدّور السّياسي والاجتماعي للشّيخ الخضر حسين:

من الملاحظ أنّ الشّيخ الخضر حسين علم من أعلام الأمّة العربيّة ورائد من روّاد الفكر الإصلاحي في الفكر العربي المعاصر، وهو واحد من أولئك الّذين كرّسوا فكرهم في المشاريع الفكريّة والإصلاحيّة. وخاض في العديد من المجالات السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة والحضاريّة والدّينيّة بشتّى أنواعها. فهو علم من أعلام الإسلام، عمل فأجاد وأفاد. ولا يسعنا في هذا الإطار أن نذكر أعماله ونحيط بدوره، من خلال ما تناثر في الكتب الّتي احتفت بذكره وبفكره طيلة مسيرته الفكريّة والعلميّة. ولا يفوتنا أن نعترف بأنّ هذا المجال لا يجعلنا إلّا أمام بحر بلا شاطئ ولا ندرك مراحل غوصنا وكيف نلمّ بالكينونة العلميّة لهذا العلم

وإتحافاته الفكريّة. ومن ثمّ تنوّعت مهامّه وتعدّدت، فنجده "الإمام المحدّث، الإمام الزّيتوني، الإمام القاضي، الإمام المجاهد، الإمام الخطيب، الإمام المحاضر، الإمام المصلح، الإمام اللّغوي، الإمام الرّحّالة، الإمام الأديب، الإمام الشّاعر، الإمام النّاقض والنّاقد، وإمام مشيخة الأزهر". (الحسيني، 2010، صفحة 07) ومن ثمّ، كلّما مسسْنا جانبا إلّا ووجدنا بصمة الشّيخ الخضر حسين حاضرة بتميّز. ولقد كرّس كلّ وقته وحياته في طلب العلم، وتأليف رصيدا من انتاجاته العلميّة والفكريّة.

ولقد صرف اهتمامه إلى علوم الشّريعة الإسلاميّة بفقهها وأصولها ومقاصدها واللّغة العربيّة والأدب. وخاض في التّفسير والعناية بالحديث والفتاوى والأحكام والقوانين الإلهيّة. واتخذ من الاجتهاد منهجا ووسيلة لاستنباط الأحكام والسّنن والخوض في القضايا الحديثة والمستجدّة. وتطرّق إلى رجالات الإسلام وترجم لهم. وكان القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة خير مصدرين من مصادر الشّريعة، بهما يستأنس وبهما يقضي في الأمور الدّينيّة والدّنيويّة إذ "وجد في الكتاب المبين دستورا حكيما عادلا إذا اتّبعوه سلموا في الدّنيا والآخرة، وإذا تركوه خسروا الحياتين". (الحسيني، 2010، صفحة 08) وتتلمذ الشّيخ الخضر حسين على يد مجموعة من الشّيوخ ومن أبرزهم سالم بوحاجب أحد أهمّ الأسباب الّتي ساعدت على ظهور العديد من رجالات الإصلاح السّياسي والدّيني والاجتماعي، باعتبار أنّ الشّيخ بوحاجب من الّذين ينادون بالإصلاح في جلّ المجالات، والتّصدي إلى الاحتلال والنّهب واستنزاف الثّروات. ومن ثمّ، فإنّ الشّيخ الخضر حسين كان من أنجب تلامذة الشّيخ بوحاجب، حيث تأثّر بالمنهج الإصلاحي، ومن ذلك زرع فيه حبّ الإصلاح وميوله الإصلاحيّة، وما " برح النّاس بعد انطواء عهد النّبوّة في حاجة إلى من يعلّمهم إذا جهلوا، ويذكّرهم إذا نسوا، ويجادلهم إذا ضلّوا، ويكفّ بأسهم إذا أضلّوا. وإذا سهل عليك أن تعلّم الجاهل وتذكّر النّاسي فإنّ جدال الضّالّ وكفّ بأس المضلّ لا يستطيع هما إلّا ذو بصيرة وحكمة وبيان" (حسين، 1927، صفحة 08).

ومع حصوله على شهادة التّطويع سنة 1898 من جامع الزّيتونة، أصبح الشّيخ الخضر حسين قادرا على إلقاء الدّروس والتّلقين في الزّيتونة. وكان هذا من أبرز الميادين الّتي تجعل من الإنسان مكتسبا لخبرة مهنة التّعليم والتّدريب عليها، و"أمّا صحّة طرق التّعليم فهي الّتي تنهض بطلّاب العلم الأذكياء إلى أن يرسّخوا في فهم أصول الشّريعة، وتعرّف مقاصدها في وقت غير بعيد، فيتيسّر لطالب هذه العلوم أن يبلغ فيها أشدّه وهو لا يزال في عنفوان شبابه، فيتصدّى للتّدريس أو التّأليف أو الدّعوة، وعزمه في قوّة، وعمّنه في نشاط، وفؤاده في ذكاء". (حسين، علماء الإسلام في الأندلس، 1928، صفحة 04) ومن الملاحظ أنّ الشّيخ الخضر حسين كان من محبّي السّفر والتّرحال وسافر إلى ليبيا محاولا المرور إلى الشّرق إلّا أنّ الاحتلال الإيطالي حال بينه وبين مروره، ممّا جعله يرجع أدراجه إلى تونس ويمارس مهنه التّعليم الزّيتوني كمدرّس. وكان من الصّعب أن يفرض أحد من سكّان القرى والمناطق الدّاخليّة نفسه أمام الآخر البورجوازي المنحدر من العائلات التّقليديّة الّتي "احتكرت العلم الرّسمي واحتكرت جميع المناصب العليا في الإفتاء والقضاء والتّدريس، ولم يكن أيّ متخرّج زيتوني من أبناء الأفاق (المدن والقرى داخل القطر) يستطيع أن يشقّ طريقه بسهولة ولا أن يفوز بأيّ منصب يتقدّم إليه أحد أبنائهم". (كرّو، 1973، صفحة 14) ومن ثمّ، فإنّه رغم محاولة إقصاء الشّيخ الخضر حسين إلّا أنّه لاقى شهرة وصيت كبير لدى تلامذته وفي الأوساط العلميّة وخارج أسوار جامع الزّيتونة. الأمر الّذي جعله يبدأ بحفر اسمه في المجتمع الموسّع، إذ أسّس أوّل مجلّة سنة 1904، وهي مجلّة السّعادة العظمى. وأسّس مجلّة الهداية الإسلاميّة، وترأّس تحرير مجلّتين وهي نور الإسلام ولواء الإسلام. ومن الملاحظ أنّه صدر 21 عددا من مجلّة السّعادة العظمى الّتي اهتمّت بالمجال الإسلامي والأدبي، بينما صدرت مجلّة الهداية الإسلاميّة في القاهرة على مدار 23 مجلّدا، كما ترأّس مجلّة نور الإسلام الّتي استمرّ في تحريرها إلى سنة 1935. وترأّس تحرير مجلّة لواء الإسلام حتّى سنة 1952. وبدا للشّيخ الخضر حسين أنّ الوضع في حاجة إلى الإصلاح والتّغيير سواء على المستوى السّياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، لذلك لم يكن مقتصرا على قاعة الدّرس فقط، وانتقل إلى الميدان الاجتماعي وصلب الدّائرة الاجتماعيّة الموسّعة لما يقتضيه واجبه الدّيني

والوطني، من نشر للدّعوة الإسلاميّة والذّود عن الوطن ضدّ الاحتلال الخارجي المضطهد لحقوق النّاس، والمستنزف للثّروات البشريّة والطّبيعيّة دون موجب حقّ، و"إلى جانب مهامّه التّدريسيّة تلك كان يواصل إنشاء المحاضرات ونظّم القصائد وكتابة المقالات في مختلف شؤون الحياة التّونسيّة. فمن محاضراته على منبر الخلدونيّة وقدماء الصادقيّة عن حياة اللّغة العربيّة، وأخرى في حياة ابن خلدون، وثالثة عن الدّعوة إلى الإصلاح". (كرّو، 1973، صفحة 16)

ومن ثمّ، فقد تقلّد الشّيخ الخضر حسين مهمّة المثقّف المحاضر حيث ألقى عشرات المحاضرات في مناسبات عدّة، وتضمّنت الخوض في القضايا المجتمعيّة كالحرّيّة والدّفاع عن الوطن، حيث أيقظ ضمائر النّاس، وأحبّ فيها حبّ الوطن وروح المواطنة، و"من واجب أهل العلم من هذا أن يرقبوا حركة الثّائرين على الدّين ويكونوا على بصيرة ما يكتبونه في الصّحف، أو يحضرون به في النّوادي، ليقوّموا أوده وينبّهوا على خطره، حتّى يستبين أمره، وتتّضح أمام النّاشئين طريقة قرع الشّبهة بالحجّة، وصرع الباطل بقوّة الحقّ، وكذلك يفعل العلماء الرّاسخون، والكتّاب المخلصون". (حسين، العلمانيّة وضلالة فصل الدّين عن السّلطة، 2011، صفحة 22) إذ أنّ محاضرة الحرّيّة في الإسلام أُلقيت في جوّ الاحتلال الفرنسي الغاشم. إذ تناقلت هذه المحاضرة على ألسن التّونسيّين، وكان لها وقع في قلوبهم المؤمنة بحرّيّة تونس والدّفاع عنها وعن سيادتها. وقد حمل الشّيخ الخضر حسين مشعل الدّعوة إلى الإصلاح والحرّيّة والدّفاع عن الأوطان من خلال ما اكتسبه من العلم، ومن خلال المحاضرات والاجتماعات وقلمه التّحريري. ومن ثمّ، فإنّ الموظّف آنذاك لا يستطيع المشاركة في الأنشطة الثّقافيّة أو الجمعيّات الأدبيّة، لأنّها لا تعجب ممثّلي الاحتلال الفرنسي، فينزعجون منها ويتوعّدون الموظّفين بأشدّ العقوبات. لذلك مثّل الشّيخ الخضر حسين خطرا في وجه العدوّ، فهو ليس من هؤلاء الموظّفين الخانعين الّذين يجد لديهم المستعمِر كلّ طاعة وعوْن وخضوع. ولمّا شعر الشّيخ الخضر حسين بمحاولة الاحتلال الفرنسي إخماد نيران صوته اللّاذع والمكافح له، وإطفاء روحه الوطنيّة ودعوته إلى الاستسلام والخضوع. عاد متطوّعا لإلقاء الدّروس في رحاب جامعة الزّيتونة وكلّف في لجنة بوضع فهارس جامع الزّيتونة. ونجح في مناظرة التّدريس من الطّبقة الثّانية سنة 1907، ويُعيّن بعد ذلك أستاذا بالمدرسة الصّادقيّة. وفي هذا الصّدد طلب منه الاحتلال الفرنسي أن يكون عضوا في المحكمة المختلطة المختصّة بالقضايا الّتي يكون فيها أحد الطّرفين أجنبيّا، فرفض أن يكون قاضيا أو مستشارا وأن يخدم مصالحه الشّخصيّة في جوّ الاحتلال الغاشم، وهو موقف يذكر فيشكر ويشرّف. وكان الشّيخ الخضر حسين يحثّ الطّلبة على إصلاح التّعليم الزّيتوني، وتغيير برامجه، وتنظيم صفوفهم في منظمّة طلّابيّة تدافع عن حقوقهم، إذ أسّس الطّلبة الزّيتونيّين أوّل منظّمة طلّابيّة سنة 1907 و"شرع الطّلبة يطالبون بالإصلاح بإيعازه وتوجيهه الخفيّ لهم، حتّى تطوّر الأمر إلى إعلان أوّل إضراب عن التّعليم قام به الطّلّاب بتونس، وهو الإضراب الّذي أعلنه طلّاب الزّيتونة يوم 16 أفريل سنة 1910 وكان عددهم يومئذ زهاء 700 طالب". (كرّو، 1973، صفحة 16)

ومن هذه الممارسات، تفطّن الاحتلال الفرنسي الغاشم إلى دور الشّيخ الخضر حسين الدّينامي في بناء العقول وتوجيه النّاس ودعوتهم إلى الدّفاع عن حقوقهم والذّود عنها، والدّعوة إلى الإصلاح وتهيئة الثّائرين والواقفين في وجه المحتلّ. ولا يفوتنا أن نلقي الضّوء على دور الشّيخ الخضر حسين القضائي، حيث عيّن قاضيا في بنزرت وتولّى الخطابة والتّدريس في جامعها الكبير، وتميّز بعدله ونزاهته مدّة سنة وسبعة أشهر، وشجّعه صديقه العلّامة محمّد الطّاهر بن عاشور للقبول بهذا المنصب إذ أقام مأدبة وألقى خطابا. وكانت علاقة الإمامين علاقة صداقة ومودّة ورحمة، إذ قال الإمام الطّاهر بن عاشور للإمام الشّيخ الخضر حسين و"إليك أيّها الصّديق تحيّة طيّبة، تصحبونها معكم، لتذكّركم ودادا لا يفنى وإن طال الزّمان وتفارقت الأبدان". (الحسيني، 2010، صفحة 24) ومن ثمّ، فإنّ حقبته القضائيّة لم تخل من سطور قلمه فكتب المقالات ومنها "القضاء العادل في الإسلام"

و"القضاء العادل" و"مكانة القضاء" و"صفات القاضي في الإسلام". وشَعُرَ بضيق هذا المنصب وابتعاده عن هدفه الشّخصي، ودوره الحقيقي كمثقّف عضوي، وقرّر الانفصال عن هذا المنصب واستقال وعاد إلى التّدريس في الزّيتونة.

ولم يكن الشّيخ الخضر حسين مثقّفا أدبيّا وإسلاميّا فقط، بل كان مثقّفا واقفا في وجه المثقّفين الزئبقيّين أو مثقّفي المقابسات، فشارك في الثّورات للتّصدّي للاحتلال الفرنسي الظّالم، ومثّل مصدر قلقا للفرنسيّين، إذ لم تجد فرنسا حجّة ضدّه وشدّدت الخناق عليه وعلى المجاهدين وحاملي الفكر الثّوري المناهض للاحتلال، وأعلنت الأحكام العرفيّة، وعطّلت الصّحافة الوطنيّة، ونفت الكثير من المفكّرين والقادة الوطنيّين. فلم يجد الشّيخ الخضر حسين راحة في الحياة في تونس من كثرة المؤامرات والأحابيل الاحتلاليّة. والتجأ إلى الرّحيل والخروج من براثن الاحتلال القاتل والمتجبّر متّجها نحو الشّرق. إذ هاجر معه إخوته الأربعة، وبينهم أخواه العالمان الشّيخ المكّي بن الحسين (1883-1963م) والشّيخ زين العابدين (1888-1977م). وزار الشّيخ الخضر عديد البلدان كمصر والشّام والحجاز وإسطنبول وألبانيا وألمانيا. واستقرّ الشّيخ الخضر حسين بسوريا، إذ عمل مدرّسا في المدرسة السّلطانيّة، وانتهج نفس المنهج الإصلاحي والعلمي الّذي انتهجه في تونس. ولم يخل نشاطه من كتاباته المقالات وإلقاء المحاضرات والدّروس الأدبيّة والدّينيّة واللّغويّة. ومن ثمّ، فقد عاش الشّيخ الحسين خضر تجربة المكوث وراء القضبان في سجون دمشق، وقد زجّ به السّفّاح جمال باشا (1873-1922م) الحاكم التّركي لبلاد الشّام السّجن، إثر حملة ضدّ الحركات الوطنيّة حيث أعدم العديد من رجال الفكر الإصلاحي والسّياسي ورجال الوطنيّة في سوريا ولبنان. وتمثّلت التّهمة الّتي ألقي الشّيخ أسوار السّجن علمه بنشاط الحركة السّرّيّة المعادية للأتراك. و"مكث الشّيخ الخضر في السّجن مدّة ستّة أشهر وأربعة عشرة يوما. فكان في زنزانة واحدة هو والأستاذ سعدي بيك الملأ، الّذي تولّى رئاسة الحكومة اللّبنانيّة بين الحربين العالميّتين. ثمّ قدّم للمحاكمة فثبتت براءته وأطلق سراحه". (كرّو، 1973، صفحة 23)

ولا يخاف الشّيخ الخضر حسين لومة لائم ولا كيد كائد، فهو لا يهاب السّجن ولا يخاف على حياته ولا من الموت فهو مؤمن بأنّه بريء في درجة أولى، وأنّه إذا قتل كغيره من العلماء فهو في سبيل تحرير الأمّة. ومثّل الشّيخ نموذج المثقّف الّذي يسعى إلى تغيير آليّات الإنارة الفكريّة والمعرفيّة وسُبُل الحضارة، من خلال السّعي الدّائم إلى التّغيير، بزرع أدوات المقاومة الوطنيّة لدى أفراد الشّعوب المستضعفة، وذلك من خلال الإرشاد والكتابة. وقد عُيّن الشّيخ الخضر بعد خروجه من السّجن في دمشق عضوا في وزارة الحربيّة العثمانيّة للعمل فيها، ويناظر هذا المنصب أقسام الصّحافة والإعلام والدّعاية. وقد سعى علي باش حانبه في هذا التّعيين لاعترافه بقوّة ورباطة جأش الشّيخ الحسين الخضر، والعمل من أجل تحرير المغرب العربي من خلال العمل على إنشاء حملات تحريريّة وحركات وطنيّة تحرّريّة ضدّ الاحتلال الإيطالي والفرنسي في الغرب الإسلامي، وكانوا "يتحرّكون بكثرة بين العواصم ولهم اتّصالاتهم السّرّيّة المنظّمّة وأنصارهم الكثيرون في تونس وليبيا والجزائر، وقد نجحوا في تنظيم حركات ثوريّة مسلّحة بالجزائر وتونس وليبيا". (كرّو، 1973، صفحة 24) ولعب الشّيخ الخضر حسين مهمّة ريادية في ألمانيا من خلال دعوه المغاربة في الجيوش الفرنسيّة والألمانيّة ضرورة القتال ضدّهم لا معهم، بحكم حرب ألمانيا مع فرنسا، إذ مكث شهورا مع بعثة من العلماء المسلمين إلى أن عاد إلى الاستقرار بدمشق بعد غزو الخلفاء للدّولة العثمانيّة. إلّا أنّه لم يعش كثيرا حتى غزت فرنسا دمشق سنة 1920 إلّا أنّ الاحتلال الفرنسي أصدر حكمه ضدّ الشّيخ غيابيّا بالإعدام بسبب تحريضه المغاربة على الثّورة ضدّ فرنسا. هذه الأخيرة سيطرت على سوريا واحتلّتها الأمر الّذي جعل من الشّيخ يلتجئ إلى مصر والفرار من الطّغاة المستبدّين، وعمل مصحّحا بدار الكتب المصريّة نظرا لقيمته الأدبيّة والعلميّة واللّغويّة. وأسّس المجلّات وكتب المقالات وقدّم المحاضرات في الجمعيّات، وألقى الدّروس في المساجد واستمر دوره الحضاري والمعرفي، ولم يكن في ذلك إلّا مجاهدا في سبيل العلم والإسلام والوطن. ومن ثمّ تقمّص الشّيخ الخضر دورا سياسيّا هامّا في مصر من خلال شخصيّته وكتاباته وردّه على الكتّاب والمفكّرين أمثال الشّيخ علي

عبد الرّزّاق وطه حسين، إذ مثّل أداة ترابط وانسجام بين الوحدات العربيّة والإسلاميّة والحفاظ على الهويّة العربيّة الإسلاميّة. وتقمّص الشّيخ الخضر الدّور الاجتماعي حيث اشترك في تأسيس جمعيّة الشّبّان المسلمين سنة 1928 وجمعيّة الهداية الإسلاميّة الّتي ترعى العمل المؤسّساتي. ومع غزارة أعماله العلميّة والمعرفيّة في شتّى المجالات، عيّن الشّيخ الخضر حسين شيخا للأزهر سنة 1952 رغم تقدّمه في السّنّ فقد شارف الثّمانين عمره، وفي سنة 1954 قدّم استقالته من منصبه بحجّة العلاج والاستجمام، وزار شقيقه زين العابدين في دمشق ثمّ عاد إلى مصر وتوفّي سنة 1958، ودُفن في تربة آل تيمور.

5- الخاتمة:

يعيش الفكر العربي المعاصر حضور عديد الموجات الحضاريّة والفكريّة والمعرفيّة، ويسعى إلى اللّحاق بالرّكب الحضاري والثّقافي العالمي، من خلال السّعي المتواصل نحو إعادة البناء والتّشييد، عن طريق رجالات الإصلاح والمفكّرين والمثقّفين. وقد مثّل المثقّف العربي أداة تواصل وتجانس من خلال محاولاته المتكرّرة في التّغيير والتّحوير. كما تواجدت مجموعة من المثقّفين الّذين حادوا عن وظيفتهم الأساسيّة، خاضعين لأهوائهم ونزواتهم ومصالحهم الشّخصيّة. انقادوا وراء اللّافاعليّة، والاستكانة وراء السّلطة وتخلّوا عن أدوارهم وما تقتضيه المهمّة المنوطة بعهدتهم، فانغمسوا وراء نزواتهم وشهواتهم.

وحريّ أن نعرض مسيرة المثقّفين العرب الّذين تبنّوا الفكر الوطني وساهموا بشكل أساسي في الدّفاع عن حقوق مجتمعاتهم ورفعوا الشّعارات المنادية بالحرّيّة والعدل والدّيمقراطيّة، وشكّلوا نواة الاستقلال والهروب من براثن الاحتلال، ووقفوا بفكرهم وبأقلامهم ضدّ الدّول المغتصبة لأراضيهم الطّاهرة، والمستنزفة لثروات دولهم ونعمها الّتي نهشوها وماجوا فيها موجا فتّاكا بدافع الحماية والاستعمار. وما وجدنا من الدّول المستنزفة للثّروات الطبيعيّة والبشريّة والنّاهبة لها، سوى الخراب والدّمار والسّرقة والتّقتيل والتّعذيب والنّهب والاستعباد والاستبعاد. ولعلّ كلمة الاحتلال والاغتصاب أبلغ معنى من القول بالاستعمار، لما تحمله هذه الكلمة، أي الاحتلال، من مظاهر العنف واغتصاب للحقوق والحرّيّات.

وصفوة القول، فإنّ الشّيخ محمّد الخضر حسين رائد من روّاد الفكر الإصلاحي في تونس وخارجها، وسعى بشكل دائم إلى صبّ كلّ مجهوداته الفكريّة والمعرفيّة والإيديولوجيّة في خدمة الأفراد والمجتمعات. ومن ثمّ، فقد لعب دور المثقّف السّامي، وامتثل للمهمّة المنوطة بعهدته، فكتب المقالات وألقى المحاضرات، وأسّس المجلّات الفكريّة والعلميّة، وكتب الكتب وألّف العديد منها، وردّ على الكثير من المفكّرين بدافع الإثراء والإضافة، وأسّس الجمعيّات المعتنية بالجانب الاجتماعي. وواجه الاحتلال الغاشم من خ54لال الرّوح الوطنيّة والقوميّة، ولم يخضع لأهواء المحتلّ وعارضه وقاومه، فحثّ المجتمعات على محاربة المحتلّ ومقاومته. لذلك يعتبر الشّيخ محمّد الخضر حسين من المثقّفين التّونسيّين والعرب، الّذين استجابوا لأدوارهم ولعبوها على الوجه الصّحيح والفاعل، فهو نجم ساطع في ليل العرب الحالك.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم كرّو. (1973). أعلامنا: محمّد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق. تونس. دار المغرب العربي.
2. أحمد علي المرزوقي. (1998). دماء على الحدود. تونس. الدّار العربيّة للكتاب.
3. ألينور برينز. (دون تاريخ طبعة). الاستعمار البريطاني في مصر. القاهرة. دار القرن العشرين للنّشر.
4. إيّاد خالد الطّبّاع. (2005). محمّد الطّاهر بن عاشور علّامة الفقه وأصوله والتّفسير وعلومه. دمشق. دار القلم.
5. بلقاسم الغالي. (1996). من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم محمّد الطّاهر ابن عاشور؛ حياته وآثاره. بيروت. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
6. جمال الدّين منظور. (دون تاريخ طبعة) .لسان العرب. بيروت. دار إحياء التّراث العربيّة.
7. خيريّة عبد الصّاحب وادي. (1982). الفكر القومي العربي في المغرب العربي نشوؤه وتطوّره من 1830 إلى 1962. بغداد. دار الرّشيد للنّشر.
8. ذوقان قرقوط. (1977). المشرق العربي في مواجهة الاستعمار؛ قراءة في تاريخ سوريا المعاصر. مصر. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
9. زاهر رياض. (1965). استعمار إفريقيا. القاهرة. الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر.
10. عقيلة ضيف الله. (1998). سياسة الاحتلال الفرنسي في الجزائر (1830-1954). الجزائر. دون دار نشر.
11. علي الرّضا الحسيني. (2010). موسوعة الأعمال الكاملة. الكويت. دار النّوادر.
12. فاطمة عشار. (2014). البعد الاستراتيجي للاحتلال الفرنسي لتونس 1881ك-1956م. رسالة ماجستير نوقشت اختصاص تاريخ المغرب الحديث المعاصر.
13. كامل سليمان الجبوري. (2003). معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتّى سنة 2002م. بيروت. دار الكتب العلميّة.
14. محمّد الجوّادي. (2014). محمّد الخضر حسين وفقه السّياسة في الإسلام. القاهرة. دار الكلمة للنّشر والتّوزيع.
15. محمّد الخضر حسين. (1927). الدّعوة إلى الإصلاح. القاهرة. المطبعة السّلفيّة.
16. محمّد الخضر حسين. (1928). علماء الإسلام في الأندلس. القاهرة. المطبعة السّلفيّة.
17. محمّد الخضر حسين. (2011). العلمانيّة وضلالة فصل الدّين عن السّلطة. القاهرة. دار الاستقامة.
18. محمّد بن عبد الله الزّركشي. (1993). شرح مختصر الخرقي. بيروت. دار الكتب العلميّة.
19. محمّد مصطفى صفوت. (دون تاريخ طبعة). الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدّول الكبرى إزاؤه. مصر. دار الفكر العربي.
20. وليد المعلّم. (1985). سوريا 1918-1958 (التّحدّي والمواجهة). دمشق. شركة بابل للنّشر.
21. *Bacha, M. (2005). Prise de la Régence d'Alger ou la prétescte du coup d'éventail.*
22. *Kakée, I. B. (1990). L'Afrique coloniale. France. Agence de coopération culturelle et technique*